إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الرابعة – العدد الخامس عشر – خريف ١٣٩٣ش / أيلول ٢٠١٤م
صص ٥٩ ـ ٣٧

حديث عيسى بن هشام بين استلهام التراث والاحتكاك بالغرب

طيبة سيفى*
بهزاد حشمتى**

الملخص

الأدب بحاجة ماسة إلى التجديد والإبداع للخروج من حالة الجمود والرتابة ويجب أن تكون هناك صلة وثيقة بين التجديد والتراث الثقافى، بينما يتمتع هذا التجديد بإيجابيات الثقافات الأخرى ويوفر أرضية لخلق الأجناس الأدبية الجديدة؛ لذلك هذا النوع من التجديد معقول وإيجابى. يعتبر حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى من أبرز الأعمال الأدبية الجديدة التى صدرت فى أواخر القرن التاسع عشر. هذا الكتاب تجديد فى حدود المعقول واستطاع أن يوفر أرضية مناسبة لخلق أجناس أدبية حديثة كالرواية والقصة ومن الصعب إدراجه تحت جنس أدبى واحد، لأن الكتاب يجمع بين سمات الأدب العربى القديم والأدب الوافد الغربى والمويلحى لم يلتزم فيه التزاماً تاماً بشكل من الأشكال الأدبية التقليدية والوافدة؛ لهذا يعتبر هذا الكتاب باكورة القصة والرواية فى الأدب العربى الحديث. يدرس هذا المقال حديث عيسى بن هشام ويعالجه من حيث المضمون حتى يميز جوانب التراث فيه من جهة ومعالم التجديد من جهة أخرى. والنتائج تدل على أن المويحلى استلهم فى تأليف الكتاب التراث العربى (كالمقامات مثلا)، كما استلهم القصه والرواية الغربية. إذن لهذا الكتاب صلة وثيقة بالمقامات كما له بعض الشبه بالرواية والقصة.

الكلمات الدليلية: التجديد، التراث العربى، عيسى بن هشام، محمد المويلحى.

---

*. أستاذة مساعدة بجامعة الشهيد بهشتى فى طهران، إيران. T_seyfi@sbu.ac.ir
**. طالب مرحلة الدكتوراه بجامعة الشهيد بهشتى فى طهران، إيران.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادى نظرى منظم
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٨/٧ش تاريخ القبول: ١٣٩٣/٢/٢٠ش

المقدمة

إن الحيـاة الأدبية الحديثة تطورت تطوراً واسـعاً بفضل المجددين الملمين بالآداب العربيـة والأجنبيـة وتتلائم المثل الأدبية الجديدة مـع ذوق المصريين وحياتهم الحديثة ويسـتوعب هذا التغيير كافة شؤون الحياة، ومنه نشأة أشكال أدبية جديدة مثل حديث عيسى بن هشام. (ضيف، ٢٠٠٨م: ١٩٦) وهو مرآة ناصعة تنعكس عليها حياة المصريين ومـا تأثروا به من أحداث مختلفة. ينطـوى حديث المويلحى على فوائد أدبية وتاريخية وهـو من بواكير القصـة والرواية فى الأدب العربى الحديث ويمكن أن نعده عموداً فقرياً للروايـة والقصة، ولكن قد أهمل الباحثون دراسـة هذا الحديـث بصورة تامة ووافية؛ لذلک سندرسـه فى هذه المقالة دراسة تحليلية ونهتم بجوانبه الفنية. اخترناحديث عيسى بن هشام موضوعاً للدراسة وآثرناه للإشارة إلى:

- جهود المويلحى المتواصلة لإحياء التراث العربى
- دور حديث المويلحى فى نشأة الرواية والقصة فى الأدب العربى الحديث
- التعريف بحديث عيسى بن هشام ومكوناته العربية والغربية
- الصلة الوثيقة بين التراث العربى والثقافات الغربية فى الأعمال الأدبية المعاصرة
- التلائـم بين ظروف المجتمع والأعمال الأدبية وأبرز نموذج هو حديث عيسـى بن هشام

والإجابة على الأسئلة التالية:

١. ماذا كان يريد أن يؤلف محمد المويلحى؟
٢. ما هى أهم تجليات التراث العربى والأدب الوافد الغربى فى حديث عيسـى بن هشام؟
٣. ما هى ميزات الكتاب الذى سماه المويلحى بـ"حديث عيسى بن هشام"؟

هناک دراسـات قامـت بالبحث فى آثار المويلحى وحياتـه ولكنها لم تعالج حديث عيسى بن هشام بصورة خاصة، منها:

"قصة الأدب فى مصر" للدكتور محمد عبد المنعم الخفاجى، يشـير إشـارة سريعة إلى المويلحى وآرائه ويورد بعض النصوص من حديث عيسـى بن هشـام. "المختار" وهو

للأستاذ عبد العزيز البشرى، تحدث فى الجزء الأول (قسم التراجم) عن المويلحى. "أدب المقالة الصحفية فى مصر" لعبد اللطيف حمزة، تناول فى الجزء الأول منه المدارس الصحفية والجرائد مثل جريدة مصباح الشرق ويبحث عن محتويات الجريدة "حديث عيسى بن هشام" وأهدافها. "مصر بين الاحتلال والثورة" لصلاح الدينى ذهنى، يوازن بين حديث عيسى بن هشام للمويلحى وعودة الروح لتوفيق الحكيم. "القصة القصيرة فى مصر" لشكرى محمد عياد، وفيه تحدث عن تطوير المقامة وذكر حديث عيسى بن هشام. "أسرة المويلحى" ليوسف راميتش، تحدث عن أسرة المويلحى وأشار إلى المويلحى وآثاره. "المويلحى الصغير" لعبدالمطلب أحمد، يدرس حياة المويلحى وآثاره. "الأدب العربى فى مصر" للدكتور شوقى ضيف، تناول حياة المويلحى، وآثاره، و... .

محمد بن إبراهيم المويلحى

محمد بن إبراهيم بن عبدالخالق المويلحى أديب وكاتب وناقد وصحفى مصرى بارز ولد فى القاهرة سنة ١٨٥٨م، والمويلحى نسبة إلى المويلح وهو أحد ثغور الحجاز على البحر الأحمر. أسرة المويلحى أسرة عربية عريقة فى عروبتها، نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى مصر منذ عهد محمد على وقد اشتهرت بالأدب، والبيان، والتأليف. (أحمد، ١٩٨٥م: ٢١؛ راميتش، ١٩٨٠م: ١٦؛ ضيف، ٢٠٠٨م: ٢٣٧)

ومن أشهر أعلامها الذين كان لهم دور كبير فى مقاومة الاستعمار والدفاع عن الإسلام ولغة القرآن، إبراهيم المويلحى وعبدالسلام ومحمد المويلحى. أما ثالث هولاء الأعلام فهو الأديب الناقد محمد المويلحى وله من الكتب علاج النفس أو رسائل فى الأخلاق وكتاب حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن وهو معروف ومشهور وقد تلقته دوائر الأدب يوم ظهوره بالترحيب. (راميتش، ١٩٨٠م: ١٦-١٧؛ أحمد، ١٩٨٥م: ٢٦-٢٧)

ظهرت ميوله الأدبية منذ نعومة أظفاره وتلقى دراسته الأولى على أبيه إبراهيم المويلحى الذى كان من الصحفيين المشهورين آنذاك. ألحقه أبوه بمدرسة الأنجال – أنجال الخديوى إسماعيل – ثم أكب على الدراسة فى الأزهر ليتقن العربية وتتلمذ لجمال الدين الحسينى الأسد آبادى ومحمد عبده واتصل بفحول العلماء والأدباء من

أبنـاء عصره وتلقى العلم على أقطاب زمانه. فاجتمعت له كل الصفات العلمية والأدبية المؤهلة من ناحية الوراثة والبيئة. (راميتش، ١٩٨٠م:٩١-٩٢؛ أحمد، ١٩٨٥م: ٤٠-٤١؛ ضيف، ٢٠٠٨م: ٢٣٧-٢٣٨)

فى باكورة شبابه عمل فى تحرير بعض الصحف المصرية. كان أسرة المويلحى وثيقة الصلة بالخديوى إسماعيل؛ لذلك وظفه فى مجلس الاستئناف ومن ثم اشتغل المويلحى فى دواوين الحكومة. وفى سنة ١٨٨٢م اشترك فى الثورة العرابية وأصدر منشورات ثورية أدت إلى عزله وحكم عليه بالإعدام، لكن خفف الحكم وبدل بالنفى، فالتحق بأبيه وبالخديوى إسماعيل فى إيطاليا ولبى دعوة جمال الدين للمساعدة فى إخراج صحيفة "العروة الوثقى" فى فرنسا. مكث المويلحى بضع سنوات فى أوروبا واستطاع أن يجيد عدة لغات منها: الإيطالية، الفرنسية، اللاتينية والإنجليزية، وألم فى هذه الفترة بالثقافات المختلفة، ثم نزل فى الآستانة وأجاد فيها التركية.

وفى سنة ١٨٨٧م عاد إلى مصر واستأنف نشاطه الصحفى ونشر مقالات مختلفة فى السياسة والاجتماع وفى سنة ١٨٥٩م حينما عاد أبوه إبراهيم إلى مصر وأخرج صحيفة "مصباح الشرق" ساعده فى تحرير هذه الصحيفة ونشر بها سلسلة من مقالاته التى سماها "حديث عيسى بن هشام" وألف كتابا سماه "أدب النفس" وانصرف إلى الكتابة حتى وافته المنية بحلوان من ضواحى القاهرة فى سنة ١٩٣٠م. (أحمد، ١٩٨٥م: ٤٥-٤٩؛ راميتش، ١٩٨٠م: ١٠٠-١٠٣؛ ضيف، ٢٠٠٨م: ٢٣٧-٢٣٨)

حديث عيسى بن هشام وأحداثه

حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن من أبرز الأعمال الأدبية التى صدرت فى أواخر القرن التاسع عشر؛ نشر للمرة الأولى مسلسلاً فى صحيفة "مصباح الشرق" بين سنتى ١٨٩٨م إلى ١٩٠٠م. يدور الحديث على رحلتين: رحلة داخلية تجرى فى مصر ورحلة خارجية تجرى فى فرنسا. تبدأ الرحلة الأولى فى مقبرة الإمام الشافعى ذات ليلة حينما يتخيل المويلحى بأنه يمشى بين القبور بغية العظة والاعتبار ويجول بين القبور ويتفكر «حدثنا عيسى بن هشام، قال: رأيت فى المنام كأنى فى صحراء "الإمام"

أمشـــى بين القبور والرجام فى ليلة زهراء قمراء يســـتر بياضها نجـــوم الخضراء ... وما زلت أســـير وأتفكر وأجول وأتدبر... .» (المويلحـــى، ١٩٢٧م: ١٣) وفى هذه الحالة التى يتأمل فيها ويتعجب من بنات الدهر يشـــاهد قبرا ينشـــق ويخرج منه رجل: «وبينما أنا فى هـــذه المواعظ والعبر وتلك الخواطر والفكر أتأمل فى عجائب الحدثان وأعجب من تقلب الأزمان ... فرأيت قبراً انشـــق من تلك القبور وقد خرج منه رجل طويل القامة عظيم الهامة عليه بهاء المهابة والجلالة ورواء الشرف والنبالة ... .» (المصدر نفسه: ١٥) فيخـــاف ويحاول أن يهرب ولكـــن الرجل المبعوث من القبر يناديه ويعرفه بنفســـه بأنه باشـــا من الباشوات التركية ومن القواد العسكرية اسمه أحمد باشا المنيكلى الذى عاش فى أيام محمدعلـــى. بعد حوار قصير يصبح الرجلان وكأنهما صديقان ويخرجان معا من مقبرة الإمام الشافعى ويسيران فى طريقهما إلى القاهرة وهكذا يدور الحديث بينهما فى أماكن مختلفة مثل الشـــرطة، المحامى الأهلى، المحكمة الشرعية، الحديقة، المجمع، المطعم، المرقص و...يمكن أن نقول بأن المويلحى تناول كافة طبقات المجتمع المصرى فى حديثه. وبعد أن تعرف الباشـــا (بطل الحديث) على مظاهر الحياة فى المجتمع المصرى طلب من عيســـى بن هشـــام (الراوية) التعرف على الحياة الغربية ومن ثم ذهب معه إلى باريس لحضور المعرض العالمى وهناك تعرف إلى الحضارة الغربية ثم عاد مع صديقه الفيلسوف الشـــرقى إلى القاهرة. هذا هو حديث عيســـى بن هشام وأهم حوادثه. اختار المويلحى لأحاديثه رجلين -كما فعل الســـابقون- هما: الراوية واسمه عيسى بن هشام والبطل و اسمه أحمد باشا المنيكلى. عيسى بن هشام هو المويلحى نفسه. فالمويلحى ليس مشاهدا منعزلا وإنما يعبر عن وجهات نظره وأصدقائه تجاه القضايا المختلفة.

أما البطل أحمد باشـــا المنيكلى فهو شخصية تاريخية كان من أشهر القواد المصريين، اشـــترك فى حرب سوريا مع إبراهيم الكبير وتولى منصب نظارة الجهادية سنة ١٨٦٢م وقد أســـند إليه قيادة الحملة البرية المصرية التى أرســـلت فى عهد الخديوى سعيد باشا لمساعدة تركيا فى حرب القرم ١٨٥٣م حيث تولى قيادتها عقب استشهاد قائدها الفريق ســـليم فتحى باشـــا فى هذه الحرب. (الرافعى، ١٩٤٨م: ١٨-٣٦) بعـــث المويلحى هذه الشخصية فى حديثه من القبر ليستعين به فى نقد معاصريه. وإلى جانب شخصية الراوى

والبطل هناك شـخصيات أخرى بعضها سريعة الظهور سـريعة الاختفاء وبعضها تظهر وتسـتمر فى جزء كبير من الكتاب مما يعطيها كثيرا من سمات الشـخصيات المألوفة فى الرواية مثل شخصية العمدة والتاجر والخليع ومن إليهم. (الراعى، ١٩٦٤م: ٢٠)

محمد المويلحى وإحياء التراث على صفحات المصباح

اطلع المويلحى على دور كتب الآسـتانه فى أثناء إقامته فيها وتمكن من نسخ رسالة الغفـران لأبى العلاء المعرى ورسـائل الجاحظ وديوان ابن الرومى ورسـائل الصابى والشـريف الرضى وغيرها من ذخائر العرب؛ فلما عاد إلى مصر بدأ ينشـر ذلك على صفحـات جريدة مصباح الشـرق منذ إنشـائها فى أبريل سـنة ١٨٩٨م. ومن هنا فإن المصبـاح كان كما يقول الشـيخ العبد العزيز البشـرى: «أول من جلـى للناس براعة الجاحـظ وعبقرية ابن الرومى بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان.» (البشـرى، ١٩٣٥م: ج٢٢٤/١) كان المويلحى يحرص كل الحرص على أن يقدم لقراء الجريدة فى كل مناسـبة ينشـر فيها ما يختاره من أدب هولاء الأدباء ترجمة لحياتهم كما كان يعقب على الرسائل التى ينشرها فى المصباح على نحو ما فعل برسالة الشريف الرضى، التى بعثها إلى أبى إسحاق الصابى. فقد أبلى بلاءً حسناً فى إحياء التراث واستحيائه على صفحات جريدة مصباح الشرق.

ثقافته وآثاره

إن رحـلات محمد المويلحى وإجادته للغات الأجنبية ونسـبه العربى وبيئته الأدبية الإسلامية، بالإضافة إلى نشأته المصرية كل ذلك جعل ثقافته تتلون بثلاثة ألوان: اللون العربى؛ اللون المصرى؛ اللون الأجنبى.

١- اللـون العربى الخالص الذى يعتمد على اللغة العربيـة وآدابها والقرآن الكريم والأحاديث النبوية والتاريخ العربى والإسلامى ٢- العنصر المصرى: فقد بدا واضحا فى روح المرح والسخرية اللاذعة والنكتة البارعة التى امتاز بها أدب المويلحى ٣- العنصر الأجنبى الذى اسـتقاه من تعمقه فى دراسـة كتب الأدب والنقد لأساطين الأدب وكبار

النقاد الغربية وإلمامه باللغات الأجنبية. (أحمد، ١٩٨٥م: ٤٠-٤١)

وأعماله:

أ. ما نشره من مقالات وأبحاث لغوية وأدبية واجتماعية وسياسية وتاريخية فى مصباح الشرق، ثم فى المقطم والمقتطف والموايد والأهرام وفى غيرها من الصحف والمجلات ولا سيما تلك التى اشترك فى تحريرها.

ب. كتابه: علاج النفس أو رسائل فى الأخلاق.

جـ كتابه المعروف: حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن.

و له إلى جانب هذا آثار أخرى منها رسائله التى كان يبعث بها إلى أدباء عصره ومفكريه منهم: السيد جمال الدين الحسينى وسعد زغلول والشيخ الشنقيطى اللغوى وحفنى ناصف بك وسليم سركيس وعبد السلام المويلحى وغيرهم.

دراسة ونقد حديث عيسى بن هشام

هذا الحديث -كما أسلفنا- هو سلسلة من مقالات نشرها المويلحى فى صحيفة "مصباح الشرق"، فهذه الجريدة كانت كما يقول العقاد «لساناً للحركة الأدبية مسموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الكتاب والشعراء وكان قولها فى ذلك منتظراً مرموقاً فى أندية الأدب والثقافة.» (العقاد، ١٩٩٢م: ٩٦) فشاع هذا الحديث وذاع صيته بين جمهور القراء من المثقفين وغيرهم. فى هذا المجال يقول شوقى ضيف منذ نشأت الأحزاب، لفتت الصحف انتباه الجمهور وصارت الصحف ساحة الأدب والسياسة واتصلت الصحافة مباشرة بالحركة الأدبية وهذب الأدباء لغة الصحف وعبروا بها عن العواطف السياسية وحاولت الحركة الأدبية أن تتلائم مع القراء حتى لاينصرفوا عن قراءة الصحف؛ لذلك إن الأدباء بسطوا نهجها وسهلوا لغتها، إذن زالت الصعوبة عنها وشاع اليسر والسهولة فيها واقتربت هذه اللغة الصحفية الحديثة إلى أذهان العامة وعلى هذا الغرار أثرت الصحافة فى لغة الأدب الحديث ومرن الأدباء اللغة القديمة وصاغوها فى أبهى إطار ونشأوا أشكالا جديدة من الأدب ومنها حديث عيسى بن هشام. (ضيف، ٢٠٠٨م: ٢٠١)

نعتقد بأن حديث عيسى بن هشام هو شكل من الأشكال الأدبية المعاصرة المحدثة ويرسم لوحة حية وصورة واضحة عن كافة طبقات المجتمع المصرى ويجرى على أسلوب المقامات فى بعض فقراته ويعالج موضوعات مختلفة فى أسلوب روائى قصصى ومن الصعب إدراجه تحت أحد الأشكال الأدبية المألوفة، لأن الكتاب يجمع بين سمات الأدب العربى القديم والأدب الوافد الغربى ويمتاز بصفاء الديباجة ونصاعة اللفظ ويعتبر حلقة الوصل بين الأدب العربى القديم وبين الأشكال الفنية الجديدة وهو مزيج من المقامة والرواية والقصة.

«حديث عيسى بن هشام – وإن كان فى نفسه موضوعاً على نسق التخييل والتصوير – فهو حقيقة متبرجة فى ثوب الخيال، لا أنه خيال مسبوك فى قالب حقيقة.» (المويلحى، ١٨٩٨م: مقدمة الطبعة الرابعة). حديث عيسى بن هشام هو تجديد فى حدود المعقول والمويلحى أديب من متخرجى مدرسة الإصلاح التى قادها فحول العلماء المصلحين آنذاك كالسيد جمال الدين الأسدآبادى والشيخ محمد عبده، لذلك سرى روح الإصلاح إلى المويلحى واستطاع أن يعبر عما تردد على ألسنة المصلحين أصدق وأجمل تعبير حتى قرظ المصلح الكبير السيد جمال الدين تقريظاً[١] حسنا على هذا الحديث. (راجع: ابراهيم، ١٩٨٣م: ١٤٩-١٥١) ومن ثم يذكر المويلحى فضل دعاة الإصلاح وأعلام الأدب عليه ويهدى كتابه إليهم.[٢]

يجب أن نشير إلى ارتباط هذا الأثر بالأدب الشفوى والحكاية لأن عملية الحكاية التى تفرضها كلمة "حديث" تشترط سامعا بدلا من القارئ ومحدثا بدلا من الكاتب والمحدث فى هذه الحالة راو من الرواة الذين أسندت إليهم أحد الآثار الأدبية التى

١. «حبيبى الفاضل تغلبك فى شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها وخوضك فى فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدى ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى...ولاتكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها..ولاتقف فى سيرك إلى الفضائل عند عجبك، لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغزيرتك السامية أولى بها من غيرك والسلام.» (مقدمة كتاب المويلحى)

٢. يقول فى معرض إهدائه كتابه: «وأهديه إلى أرواح المرحومين الأديب الوالد والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت بهديهم.» (مقدمة كتاب المويلحى)

ظهـرت خلال القرن الرابـع الهجرى، وهى المسـمى بمقامات بديع الزمـان الهمذانى. (حواس، ١٩٨١م: ٢٣١-٢٣٧)

يقوم محمد رشيد ثابت فى دراسته بتحديد الشكل الأدبى لـ "حديث" وفقا للدراسات السابقه التى تناولته والتى قام بها عرب وأوروبيون ومن ثم نلاحظ أنها تفرعت إلى ثلاثة إتجاهات: ١- اتجاه يجعل الحديث أقرب إلى شـكل المقامات ٢- اتجاه يجعل الحديث أقرب إلى الشكل الروائى ٣- اتجاه جعل الحديث بين المقامة الروائية. (ثابت، ١٩٧٥م: ٣١)

لذلـك اختلف الكتـاب والأدباء حول جنس هذا النتـاج الأدبى الضخم؛ فبعضهم سمـاه مقامة وبعضهم قال إنه قصة حديثة والبعض الآخـر قال إنه رواية عربية حديثة وتوسط بعضهم فقال إنه محاولة للقصة والرواية وأخيراً نجد من قال إنه كتاب من كتب النقد الاجتماعى أو من كتـب التاريخ. (أحمد، ١٩٨٥م: ٢٢٥) يقول أحد كتاب الفريق الأول: «على أن مقامات المويلحى متأثرة تأثراً فنيا بأسلوب المقامة التقليدية رغم تعقد الصورة فى ما بين الصورة الفنية لدى المويلحى وما بينها لدى بديع الزمان أو الحريرى مـن فرق ناتج عن الفرق بـين مجتمعين لكل منهما ظروف أدبية وسياسـية واجتماعية خاصة.» (شوكت، ١٩٦٣م: ٤٥)

تأثر المويلحى بأسـلوب المقامات واتخذ من عيسى بن هشام عنواناً لكتابه "حديث عيسـى بن هشام" وجعله أيضاً راويا لأحاديثه، إذ إن «الراوى عنصر فنى ملازم لجميع أنواع القص وأشكاله فى القديم والحديث. فليس هناك قص شفهى أو كتابى دون راوٍ.» (وادى، ١٩٩٦م: ٨٩)

اختيار الراوى لسـرد الحكايات والقصص هو ظاهرة شـائعة ومتداولة فى الأدب العربى وجدير بالذكر بأن «إسناد الحكاية أو القصة إلى راوية، أو إلى شخصية تاريخية، لا ينبغى أن يعد حجة على وجود تلك الشخصية، ولا على ثبوت إسناد النص المروى عنهـا إليها على الحقيقة، وإنما هى سـيرة كان الكتاب والسّـراد يفزعون إليها لإثبات تاريخية الفعل الأدبى، وإضفاء الشرعية الواقعية على وجوده، فى غياب التقليد الإبداعى خارج مملكة الشعر.» (مرتاض، ١٩٩٨م: ١٧٣)

«فالعرب عرفوا السـرد/الحكى فى سـالف العصور ولكن الشكل هو الذى تغير ولم يعـد نمطا خاضعـا لجاهزية قوالب لغوية تقفز بين السـجع والبلاغة التقليدية فى المقامة أو السـير الشـعبية. أصحاب هذا الرأى يعتبرون أن الرواية عندنا لم تنبن على البياض ولكنها انطلقت على أسـس الكتابة المقاماتية والمرويات السردية الشفهية التراثية التى كانت تعج بهما الثقافة العربية.» (الكرافس، ٢٠١١م: ١٤)

ويمكـن أن نعد وجود الراوى فى سـرد الحكايات أو المقامـات والقصص نوعا من القناع حتى يسـتطيع الكاتب أن يعبر عن آرائه ومواقفه تجاه الشؤون المختلفة بالطلاقة وحرية البيان، يتكلم وينتقد بلسان الراوى ويصل إلى غرضه مهما كان.

وقد اختار المويلحى عيسى بن هشام راوياً لحديثه لأن هذه الشخصية مألوفة لذهن القارئ العربى ولحرص المويلحى على التمسك بالتراث العربى القديم وأساليبه وتأثره بأسلوب مقامات بديع الزمان الهمذانى.

«فإن المويلحى يرى أنه لايرتقى ولا تسـمو عبارته ولاتجود معانيه إلا إذا اتصل الأدبـاء بالتراث العـربى القديم يقبلـون فى عباراته البليغة وأسـاليبه الرصينة، وغاية المويلحى من كل هذا أن يتصل الأدباء بالادب العربى القديم لأنه منبع لكل بارع وفاخر من الأساليب.» (إبراهيم، ١٩٨٣م: ١٤٩)

أما الفريق الثانى فإن الأستاذ محمود تيمور يأتى فى مقدمتهم، فهو يقول: أول كتاب ظهر فى الأدب العصرى القصصى جدير بأن نضعه بلا محاباة فى الصف الأول من مؤلفاتنا القصصية اتبع صاحبه فى تأليفه طريقة المقامات واسـتعان بأسلوبها المسجع فى كثير من مواضعه؛ لذلك لا نسـتطيع أن نسميه رواية قصصية بالمعنى المعروف عندنا الآن لخلوه مـن الحادثـة أو العقدة التى تمتاز بها القصص العصرية ولكـن لايقلل من قيمة الكتاب للدقة التى استعملها المؤلف فى رسم الشخصيات وتحليلها. (تيمور، ١٩٢٦م: ٤٢)

وعندما يقدم الأسـتاذ طاهر الطناحى الحديث يقول "والأحداث التى مرت بأبطال هذه القصة الفريدة جمة كثيرة وكلها ممتعة يطالعها الإنسان فى نهم حتى يأتى على آخرها ولأن هذه القصة كبيرة رأينا إصدارها فى جزئين.» (الطناحى، مقدمة حديث عيسـى بن هشام، ١٩٣٥م)

« والقصــة قديمة فى الأدب العــربى كانت تحيا بحياته وتموت بموته وحين جمد الأدب العربى فترة من الزمن جمدت معه القصة بل زالت من الميدان العربى ثم بعثت بعثا جديدا مــع النهضة المصرية الحديثة وشــاء القدر أن يكون هذا البعث علــى يدى المويلحيين الكبــير والصغــير وكانا يعملان معا فى هذه الجريدة الأدبيــة العظيمة التى نتحدث عنها وهى جريدة "مصباح الشرق".» (حمزة، ١٩٩٦م: ١٠٣)

وقد اســتطاعت هذه الجريدة أن تقــدم لقرائها قصتين كبيرتين مــن أروع القصص العربية الحديثة من حيث الموضوع؛ أما القصة الأولى فحديث عيســى بن هشام لمؤلفها محمد المويلحى وأما القصة الثانية فحديث عيسى بن عصام لأبيه إبراهيم.

وإن التاريــخ الأدبى لينظــر إلى هاتين القصتين على أنهما يمثــلان الطور الأول من الأطــوار التى خضعت لها القصة المصرية الحديثة كمــا ينظر إلى المويلحيين على أنهما رائدان كبيران من رواد النهضة الحديثة فى ميدان عظيم من ميادينها وهو ميدان القصة. (المصدر نفسه: ١٠٣)

وهناك فريق ثالث توســط فى الأمر فلم يقل إن الكتاب مقامة ولا قصة ولا رواية بــل أطلقوا عليه بأنه محاولة للقصة والبعض الآخر قــال إنه أقرب إلى المقامة منه إلى الرواية.

أمــا الذيــن قالوا إن الحديث أقرب إلى المقامة منه إلى الرواية فيأتى على رأســهم الدكتور عبدالمحسن طه بدر فهو يعتمد فى رأيه على عدة دلائل، منها أنه يقول فى تسمية الكتاب بالحديث أن «التســمية تقترب من المعنى الاصطلاحى للمقامة التى كانت قريبة فى معانيها من كلمة حديث، وإن المؤلف اختار أن يكون الحديث لعيسى بن هشام وهو بطل مقامات بديع الزمان الهمذانى، وإن أسلوب المويلحى فى سرد الأحداث يقترب من أسلوب المقامة والعناية بالسجع والمحسنات البديعية.» (بدر، ١٩٦٣م: ٦٨)

وهو يسرد الأدلة على قوة الصلة بين حديث عيسى بن هشام والرواية، منها:

- رابطــة داخلية بــين فصول الكتاب وهذه الرابطة وإن بــدت ضعيفة باهتة غير مطــردة فإنها ظاهرة جديدة على الرواية التعليمية وأما المقامات فهى تعبر عن مجموعة من المواقف المنفصلة.

- سهولة الحوار وحيويته وملاءمته لذوق أهل العصر وعقولهم.
- تعدد الشخصيات وإفساح المجال لهم وعدم الحد من نشاطهم وترك الحرية لهم. «فقد أفسح المجال أمام أبطاله للتجول بحرية بين قطاعات المجتمع المتنوعة الخصبة فى تنوعها وألوانها.

فقد كان المويلحى يهدف إلى النقد الاجتماعى أولا ويأتى الهدف اللغوى فى مرتبة ثانية، بينما الهدف اللغوى فى المقامات هو الهدف الأول.» (المصدر نفسه: ٨١)

هدف المويلحى من كتابة هذا الحديث كما قال نفسه: «أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس فى مختلف طبقاتهم من النقائص التى يتعين اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها.» (المويلحى، ١٩٢٧م: ٥)

وإذا كان إبراهيم المويلحى قد ضغط فى كتابه حديث موسى بن عصام على الموضوعات السياسية فإن ابنه محمد قد استهدف فى حديث عيسى بن هشام تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية فى مصر لفترة من الزمن تمتد إلى أوائل القرن العشرين. (راميتش، ١٩٨٠م: ٣٨٠)

يعدد الأستاذ عبدالمطلب أحمد أهداف المويلحى من كتابة حديث عيسى بن هشام ومنها: ١- نشر اللغة الفصحى وإبعاد اللهجة العامية عن مجال العلم والأدب ٢- نشر الأبحاث الأدبية والسياسية ٣- نقل الفكر الأجنبى إلى القراء العرب ٤- استخدام الأسلوب الصحفى يمتاز بالسهولة والتدفق والبعد عن الحوشى من الألفاظ والتحرر من القيود اللفظية ٥- نقل الأدب من المجال الفردى إلى المجال الجماعى ومعالجة مواضيع الحياة ومشاكلها. (أحمد، ١٩٨٥م: ٧٥)

المويلحى نموذج من أصدق النماذج التى تعبر عن البيئة المصرية فى ذلك العصر ودراسة أدبه تعتبر دراسة وافية للبيئة المصرية وما فيها من تيارات أدبية تقدمية ورجعية. (المصدر نفسه: ٧٨)

ويرى الدكتور على الراعى أن حديث عيسى بن هشام هو صراع بين فن المقامة وفن الرواية. صراع لم يستقر بعد؛ ففيه من هذه وفيه من تلك؛ تغلب المقامة فى بداية الفصل ثم سرعان ما تنتصر القصة على بقية الفصل. سمات المقامة واضحة ولكن هناك

أيضا سمات الرواية من نمو حدث وبناء شخصياتها.. وهو على ذلك البداية الأولى للرواية المصرية. (الراعى، ١٩٦٤م: ١٩-٢٢)

حديث عيسى بن هشام بين القصة والمقامة

كانت لدعوة السيد جمال الدين الهمذانى أصداء واسعة فى الأدب العربى؛ فقد كان يدعو إلى النهوض ومقاومة الاستعمار بأشكاله المختلفة مع عدم الأخذ من الحضارة الغربية إلا ما هو صالح ونافع فظهرت نتيجة لذلك حركة إحياء التراث العربى وحركة الاتصال بأدب الغرب وثقافته سواءً بالقراءة فى أصوله أو بالترجمة.

ولعل من استجاب لهذه الدعوة فى مجال القصة العربية الحديثة هو محمد المويلحى فبدأ ينشر سلسلة حديث عيسى بن هشام فى جريدة مصباح الشرق متأثراً بأسلوب المقامات العربية القديمة متناولاً المجتمع المصرى وبذلك أراد أن يوفق بين القصة الغربية والمقامة العربية فى أسلوبها الرفيع الرصين. (خضر، ١٩٦٦م: ٤٨-٤٧)

ذهب كثير من النقاد والباحثين إلى أن المويلحى كان الرائد الأول فى مجال القصة المصرية الحديثة. يقول على أدهم: « وأحسب أنه لا امتراء فى أن محمد المويلحى كان الرائد الأول للروائيين المصريين الذين جاءوا بعده وقد مهد لهم السبيل وقدم لهم المثال مع قوة الأداء وبلاغة التعبير والمحافظة على سلامة اللغة وصحة العبارة.» (أدهم، ١٩٦٤م: مقدمة كتاب حديث عيسى بن هشام)

ويقول الأستاذ محمد رشدى حسن أن المويلحى قد مهد الطريق فى عالم القصة وفى عالم المسرح أيضاً بحديث عيسى بن هشام؛ فإنه إن لم يكن على القمة فى عالم القصة والمسرح إلا أنه مهد وعبد فكان تمهيده وتعبيده مصدرين للإشعاعات الجديدة فى عالم الأدب. (حسن، ١٩٧٤م: ١٩٠-١٨٩)

وكما يقول الأستاذ محمود تيمور: «منذ أواخر القرن الماضى ونحن لا نملك من أدبنا العصرى القصصى غير كتاب واحد هو حديث عيسى بن هشام إذا أردنا أن نتحدث عن البلاغة القصصية الجديدة لم نجد إلا حديث عيسى بن هشام وإذا أوصينا أحداً بقراءة كتاب جيد لم نجد إلا حديث عيسى بن هشام وإذا افتخرنا بأدبنا القصصى لم نجد

إلا حديث عيسى بن هشام حتى ضقنا ذرعاً به وضاق هو الآخر ذرعاً بنا ووددنا أن نسكت بدلاً من أن نتكلم عن كتاب واحد فقط.» (تيمور، ١٩٢٦م: ٤١)

ويعتبر الباحث المصرى أحمد أبوبكر إبراهيم حديث عيسى بن هشام بدايةً طيبةً للقصة المصرية وفتحاً جديداً للون جديد من الأدب فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ذلک لأن القصة المصرية منذ بداية العصر الحديث كانت مقصورة على المقامة والقصص العامية وما خرج منها عن هذه الدائرة كان منقولاً عن اللغات الأجنبية لا يمثل الحياة المصرية فى قليل ولا كثير: «ونحن حين نقول إن حديث عيسى بن هشام كان بداية طيبة للقصة لاندعى أنه استوفى شروطها وأنه سلم الأخطاء الفنية التى تخرج الكتاب عن الروح القصصى.» (إبراهيم، ١٩٨٢م: ١٠٨٠)

حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى مثال ظاهر للمزج بين عدة أساليب وإن كان شكل المقامة هو الأساس الذى اعتمده الكاتب والفصول الوسطى من الكتاب لما فيها من وحدة الموضوع واتصال الحوادث أعمال قصصية قصيرة مشتقة من شكل المقامة. (عياد، ١٩٦٨م: ٦٩-٧٩)

حديث عيسى بن هشام قصة اجتماعية طويلة على الطريقة التقليدية ومحاولة للملائمة بين هذه الطريقة وبين الحياة الحديثة ونقد صاغه المويلحى فى أسلوب المقامات المسجوع عندما يتناول الشؤون الاجتماعية التى كان يكتب فيها المصلحون من مثل قاسم أمين وفتحى زغلول. (ضيف، ٢٠٠٨م: ١٨٧)

ميزات حديث عيسى بن هشام

الفكاهة

ليست الفكاهة النثرية من ابتكار المويلحى وإن كانت قد ظهرت عنده ظهوراً واضحاً بحيث يمكن الحكم بأنه كان يقصد إليها قصدا وكتابه حديث عيسى بن هشام شاهد على ما نقول. فقد اشتمل على جميع أنواع الفكاهة من السخرية واللذع والتهكم والنادرة والدعابة والمزاح وما إلى ذلک. (راميتش، ١٩٨٠م: ٣٨٩)

ومن نماذج الفكاهة عندما يقول عن المحامى الشرعى: «علمنا أنک رجل عدل عف

فجئنـــاك لقضية فى وقف فقال: أ تطلبون ريعه أم تريدون بيعه؟ ســبحان الله وهل تباع الأوقــاف؟ قال نعم ويباع جبل قاف ثم تنحنح وســعل وبصق وتفل وتســعط ثم تمخط واقترب منا ودنا ثم قال لنا.» (المويلحى، ١٩٢٧ م: ١٠٤)

ويقــول فى تصويــر بلاء الناس بطول الإجراءات فى المحاكم :« ونحن نســأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر وأن يجعل بإنقضاء القضية قبل إنقضاء العمر.» (المصدر نفسه: ١٠٩)

ومما لا شــك فيه أن هذا الاســلوب فى حديث عيسى بن هشام كان أحد الأسباب المهمة فى ذيوعه وإقبال الناس عليه فى عصره وما بعد عصره.

استخدام السجع والمحسنات البديعية

يلجــأ المويلحى إلى تنميق الأســلوب والعناية به إلا إذا كان الحديث على لســان عيســى بن هشــام أو الباشــا أما غيرهما من أشــخاص الكتاب فيجرى الحديث على ألسنتهم سهلاً لا أثر فيه للتنميق والتجميل ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا فى الحوار حيث يتوخى فيه السهولة حتى لو كان الحوار بين عيسى بن هشام والباشا.

يقول الدكتور زكى مبارك: «... ويغلب على أسلوب المويلحى فى حديث عيسى بن هشام السجع وهو لا يعفى نفسه من أثقال هذه الحلية إلا حين يخوض فى أحاديث يطلب فيها الإقناع لا الإمتاع ومعنى هذا أن مقامات الكلام ترجع فى جملتها إلى مقامين: مقام تخاطب فيه العقول ومقام تناجى فيه القلوب. فالترســل الحر هو أسلوب الإقناع والنثر الفنى هو أسلوب الإمتاع.» (مبارک، ١٩٤٢م: ١٠٣٥)

سجع المويلحى قصير الفقرات، كل فقرة منه مؤلفة من لفظتين إلى خمس، والمويلحى لا يستعمل السجع الطويل إلا نادراً وهذه صفة محمودة لأن هذا هو أجمل أنواع السجع عنــد أهل البديــع. يقول ابن الأثير: «وكلما قلت الألفاظ كان أحســن لقرب الفواصل المســجوعة من سمع الســامع وهذا السجع أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا ولا يكاد اســتعماله يقع إلا نادرا ... وإنما كان قصيرا من الســجع أوعر مسلكا من الطويل... أما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه وتستجلب له السجع من حيث وليس- كما يقال - وكان

ذلک سـهلا.» (ابن الاثير، ١٩٣٩م: ج١/ ٢٤٠) ومن السجع الجيد الذى بلغ فيه الغاية قوله: « ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا فى ساحتها أقواما ذوى وجوه مكفهرة وألوان مصفرة وأنفاس مقطوعة وأكف مرفوعة وشاهدنا باطلا يذكر وحقا ينكر وشاكيا يتوعد وجانيا يتودد وشاهدا يتردد وجنديا يتهدد وحاجبا يستبد ومحاميا يسـتعد وأما تنوح وطفلا يصيح وفتاة تتلهف وشيخا يتأفف.» (المويلحى، ١٩٢٧م: ٣٧) واستخدام هذا اللون من السجع كثير فى حديث المويلحى.

ويحفل المويلحى فى حديث عيسـى بن هشـام إلى درجه كبيرة بالتشبيه والاستعارة والكناية، وما إلى ذلک من صور البيان العربى، وبالجناس والطباق والترادف والمقابلة وغيرهـا من ألوان البديع التى زين بها كلامه، والـتى كانت صدى للذوق الأدبى العام، لتلک الفترة التى ظهر فيها حديث عيسى بن هشام. فيقول المويلحى:

«فجلسـنا نتجـاذب أطراف الحديث مـن قديم فى الزمن إلى أن صـارت الليلة فى أخريات الشـباب، فاستهانت بالإزار والنقاب، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء، ودرجها الصبـح فى أردينه البيضاء ثم قبرها فى جـوف الفضاء، وقامت عليها بنات هديل نائحة بالتسـجيع والترتيل الماتم فى الحال عرس اجتلاء، وتبديل النحيب بالغناء، لا إشـراق عروس النهار، وأسفار مليكة البدور والأقمار.» (المصدر نفسه: ٣٧١)

كان يلجأ المويلحى إلى السـجع والبديع والإطناب ومـا إلى ذلک لتوضيح المعنى وإبراز الصورة وأما كان يسـتخدم الأدباء هذه الأسـاليب للإغـراب اللغوى والتعقيد اللفظى وتعليم الكتابة.

يقـول العقاد فى أسـلوب المويلحى: «ولايقـال إنه يفرط فى التزام السـجع فيغض ذلک من اسـتقلاله ويلحقه بكتاب الألفاظ وجماعـة المقلدين فإن الرجل قد التزم هذا الأسـلوب، لأنه أسلوب المقامة لا لأنه أسلوب هذا الكاتب أو ذاک فكأنه الممثل حين يلبس ثياب القرون الوسطى وهو يعلم ونحن لا نعلم أنه يلبس ثياب الدور الذى اختاره ويطلب منا أن ننظر إليه على ذلک الاعتبار ومن الحق بعد هذا أن نقرر هنا أن سـجع المويلحى كان أكثره من قبيل الحلية المستملحة ولم يكن من قبيل الحشو أو الاستكراه.» (العقاد، ١٩٣٠م: ٤١)

أسـرف بعض الباحثين مثل صلاح الدين ذهنى فى انتقاد أسـلوب المويلحى ونسبوا إليه التكلف، «لا نريد أن ندفع عن المويلحى تهمة التكلف فى كل مكان وزمان ولكن يا ليت بعض الكتاب المعاصرين أن يتصفوا بشـى من عناية المويلحى فى اختيار الصحيح والفصيح وفى بلاغة التعبير عن معانيه.» (راميتش، ١٩٨٠م: ٢٥)

أكثـر الكاتـب كعادته من الصور البيانية والمحسـنات البديعيـة ولكن ذلک لم يخل بالمعنـى ولم يحجـب الغرض، فجـاء النص واضحا سـهلا رغم ما فيه من المحسـنات والتشـبيهات والاسـتعارات، سـجعه طبيعى لم تبد عليه صفة التكلف وجاء بمحسنات بديعية كثيرة ولكنها لم تثقل النص ولم تغمط حق المعانى بل وضحت المعانى وزادت من جمال الأسـلوب.(احمد، ١٩٨٥م: ٨٤) إن السجع فى أسلوب المويلحى كان وليد العصر المقيد والجو المشبع بالتكلف فى كل مظاهر الحياة الذى كان يسود مصر فى تلک الفترة. (راميتش ١٩٨٠م: ٢٦)

يشـير الأسـتاذ أحمد أبوبكر إبراهيم إلى سـر اختلاف الأسلوب فى حديث عيسى بن هشـام و يعتقد بأن حديث عيسى بن هشـام يعبر عن النزعتين المختلفتين الموجودة فى نهاية القرن التاسـع عشر وهما: ١- الحنين إلى القديم المشحون بالزخارف الشكلية والمحسـنات البديعية والجمال الفنى ٢- النـزوع إلى الطريقة الجديدة التى تعنى بالمعنى والبساطة والوضوح وقد جاء حديث عيسى بن هشام معبرا عن هاتين النزعتين أصدق تعبير. (إبراهيم، ١٩٨٢م: ١٠٨٠)

الاستشهاد بآيات القرآن الكريم و بأبيات من الشعر العربى

ومن ذلک قوله تعالى: «ولكل أجل كتاب فإذا جاء أجلهم لايسـتأخرون ساعة ولا يسـتقدمون» «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» و«قل إن الموت الـذى تفرون منه فإنه ملاقيكم» (المويلحـى، ١٩٢٧م: ١٦٤) و«أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ...» و«إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليـل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكـرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السـموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سـبحانک فقنا عذاب

النار» (المصدر نفسه: ٢٤٨-٢٤٩)

أما الاستشهاد بالأبيات من الشعر العربى فقد كان يأتى بها فى المناسبات الكثيرة وينزل منازلها «حتى تصبح جزءاً عضوياً من الكلام ملتحماً به متصلاً بأغراضه.» (أدهم، ١٩٦٤م: مقدمة كتاب حديث عيسى بن هشام) وقد أكثر من شعر أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء والفرزدق من الإسلاميين والشنفرى والخنساء والنابغه الذبيانى من الجاهليين.

الاقتباس من القرآن والتضمين من الشعر العربى

«وهذا النمط جميل ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ.» (زكى مبارک، ١٩٣٤م: ١٢٩)

فمن تضمينه للقرآن قوله: «ومكثنا نقطف القطوف الدانية، بين تلک الأعين الجارية فى عيشة راضية، لا تسمع فيها لاغية» (المويلحى، ١٩٢٧م: ١٥١) وقوله أيضا:«وأما وكيل البيت وما أدراک ما الوكيل فسبحان الله ونعم الوكيل» (المصدر نفسه: ١٩٦) وقوله أيضا: «وتقارعت الأطباق وتطاولت الأيدى بالذى كالظبى فى الوغى والتفت الساق بالساق واشتد الهول وضاق الخناق.» (المصدر نفسه: ٢٣١) وقوله كذلک: «ولطالما دخلت هنا وحيدا فريدا، فما أكاد أنصب الحبالة وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع.» (المصدر نفسه: ٢٥١)

وأما التضمين من الشعر فمن ذلک قوله «رأيت فى المنام كأنى فى صحراء الإمام فى ليله زهراء قمراء يستر بياضها نجوم الخضراء فيكاد فى سنا نورها ينظم الدر ثاقبه.» (المصدر نفسه: ٥) وهو تضمين لقول الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهُم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وقوله أيضا:«كيف بالحياة بعد الممات لحق أنت إحدى المعجزات.» (المصدر نفسه: ٧٧)؛ فقد ضمنه قول الشاعر أبى الحسن الأنبارى:

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلک إحدى المعجزات

وقوله كذلک: «أطلب من أنواع المحال أن يحمل الذر الجبال.» (المصدر نفسه: ١٠١)

وهو تضمين لقول المعرى:

ومن صحب الليالى علمته خداع الألف والقليل المحالا
وغيرت الخطوب عليه حتى تريه الذر يحملن الجبالا

وقوله أيضا: «فيزول ما هنالک من الجدال والخصام، ويصيرون جميعا إلى الحسنى والرقيق من الكلام.» (المصدر نفسه: ١٢١) فقد ضمنه قول امرئ القيس:

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا وأذللت من أخلاقها أى إذلال

ومن تضمينه للنثر العربى قوله: «وهل انطمست تلک الشريعة الغراء واندرست بيوت الحكم والقضاء، اللهم لاكفران ولعن الله الشيطان.» (المصدر نفسه: ٣٨) وهو تضمين من قول بديع الزمان الهمذانى من المقامة البغدادية فى ذكر الشواء قال: «اللهم لاكفران ولعن الله الشيطان وأنسانيک طول العهد، وانصرام البعد؛ فكيف حال الوالد أشاب كعهدى، أم شاب بعدى.» (الهمذانى، ١٤٢٦ق: ٧١)

تصوير أوضاع المجتمع

وإذا كان ابراهيم المويلحى قد ضغط فى كتابه حديث موسى بن عصام على الموضوعات السياسية فإن ابنه محمد قد استهدف فى حديث عيسى بن هشام تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية فى مصر لفترة من الزمن تمتد الى أوائل القرن العشرين.

ومن هنا فإن بعض الباحثين يعدون حديث المويلحى «أول عمل نثرى فنى بعد لوحات النديم يعرض لمظاهر الحياة المصرية ويناقش أدق مشكلات المجتمع فى مختلف ظواهرها فضلا عن تبشيره البارع بالحضارة الوافدة فى رحلة أوروبا.» (جبريل، ١٩٧٢م: ١٤٥)

بشر المويلحى فى حديث عيسى بن هشام بالحضارة الغربية الوافدة من أوروبا، فيقول فى شرح أسباب فساد المجتمع ما نصه: «السبب فى ذلک هو دخول المدينة الغربية بغتة فى البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين؛ ففى جميع أحوال معايشهم كالعميان لايستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولايتبصرون بحسن نظر ولا يلتفتون إلى ما

هنالک مــن تنافر الطباع وتباين الأذواق واختلاف الأقاليم والعادات ولم ينتفقوا منها الصحيح من الزائف.» (المويلحى، ١٩٢٧م: ٣٢٥)

نستنتج بأن المويلحى لم يكن من أولئک الذين يكرهون الحضارة الغربية وإنما كان يكره على المصريين الأخذ بها دون تبصر ولا نظر. يقول فى الفصل الأخير من الكتاب: «ولهذه المدينة الكثير من المحاسن كما أن لها الكثير من المساوئ فلا تغمطوها حقها ولا تبخسوها قدرها وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم واتركوا مايضركم... .» (المويلحى، ١٩٢٧م: ٤٦٢-٤٦١)

إن محمد المويلحى بالإضافة إلى ثقافته الواسعة العميقة من شرقية وغربية فقد توفر له الذوق الأدبى الســليم والبصيرة النافذة التى فى مقدورها أن تكشــف بواطن الأمور كما اكتملت له كل المقومات الشخصية التى خلفت منه ناقدا أدبيا واجتماعيا وفنيا وأن يكون صاحب نظرية فنية جديدة. (أحمد، ١٩٨٥م: ١٢٣)

حديث عيسى بن هشام بين التأثير والتأثر

تأثر حافظ إبراهيم فى كتابه " ليالى ســطيح " بحديث عيســى بن هشام فى مضمونه وشــكله. أما من حيث المضمون فقد عالج كثيرا من الموضوعات التى عالجها المويلحى، منها مشهد الخمارة ووصف الأندية والمراقص والقصور وأماكن اللهو والمجون فى حديقة الأزبكية وما إلى ذلک من الموضوعات التى تناولها المويلحى فى حديثه.

أما من حيث الشــكل فقد جعل لياليه بطلاً فيه كثير من صفات الباشا بطل حديث عيســى بن هشام وقد بعثه المويلحى من قبره -كما رأينا- ليستعين به فى نقد معاصريه، وكذلک فعل حافظ ابراهيم مع سطيح إذ بعثه من القبر ليستعين فى توجيه النقد للمجتمع المصرى عن طريق العرافة والتكهن.

ومــن الكتاب الذين تأثروا بصنيع المويلحى هو حفنى ناصف فى نثره وصالح حمدى حمــاد فى روايتــه الأميرة يراعة ومحمد لطفى جمعة فى كتابــه ليالى الروح الحائر وفريد وجــدى فى الوجدانيــات ومحمد عبدالله الموقت فى الرحلة المراكشــية ويســتمر تأثير المويلحى حتى منتصف هذا القرن، حيث نجد يوســف الســباعى يبدأ مسيرته فى درب

الرواية على طريق عيسى بن هشام فى أرض النفاق سنة ١٩٤٩م وتدور رواية يوسف السباعى حول بطل فيه كثير من صفات أحمد باشا المنيكلى بطل حديث عيسى بن هشام. (راميتش، ١٩٨٠م: ٤١٠-٤١١)

ومما لاشك فيه أن حديث عيسى بن هشام «كان قراءة أساسية لمؤلفى الأعمال القصصية التى تلت صدوره ابتداء من حافظ إبراهيم فى ليالى سطيح إلى توفيق الحكيم فى عودة الروح مرورا بأعمال محمد تيمور وحسين فوزى و عيسى عبيد وشحانة عبيد وطاهر لاشين وغيرهم.» (جبريل، ١٩٧٢م: ١٤٦)

النتيجة

١. نستطيع أن نعتبر حديث عيسى بن هشام شكلاً متطوراً ملائماً مع الأجواء الأدبية الجديدة ومزيجاً من التراث العربى والاحتكاك بالغرب ونتيجة إلمام المويلحى بالثقافات المختلفة.
٢. يجرى الكتاب على أسلوب المقامات فى بعض من فقراته كما يعالج موضوعات مختلفة فى أسلوب روائى قصصى بحيث يعد هذا الحديث باكورة الأدب القصصى العربى.
٣. يعتبر الكتاب حلقة الوصل بين الأدب العربى القديم وبين الأشكال الفنية الجديدة وهو مزيج من المقامة والرواية والقصة.
٤. بما أن الكتاب يجمع بين سمات الأدب العربى القديم والأدب الوافد الغربى فلذلك من الصعب إدراجه تحت أحد الأشكال الأدبية المألوفة ويمكن أن نسميه الرواية الاجتماعية المقامية أو رواية مقامية ذات خيط قصصى.
٥. كتبه المويلحى ليرسم لوحة حية من قاعدة إلى قمة المجتمع المصرى آنذاك وفى هذا الرسم يدافع عن بعض مظاهر التغيير ويهاجم بعضها الآخر وأراد أن يصلح المجتمع ويؤرخ فترة من الزمن عاشها المجتمع المصرى فهو باكورة النقد الاجتماعى الحديث ولقد تأثر بكتاب المويلحى فى شكله ومضمونه الكثير من الأدباء.

٦. أما ميزات الكتاب فهى:

- استخدام الفكاهة: وهذا الأسلوب كان أحد الأسباب المهمة فى ذيوعه وإقبال الناس عليه فى عصره وما بعد عصره.
- المحسنات البديعية خاصة السجع: فسجع المويلحى قصير الفقرات وهذه صفة محمودة لأن هذا هو من أجمل أنواع السجع عند أهل البديع. والمويلحى كان يلجأ إلى السجع والبديع والإطناب وما إلى ذلک لتوضيح المعنى وإبراز الصورة.
- الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربى فى كثير من المناسبات
- تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية فى مصر لفترة من الزمن تمتد إلى أوائل القرن العشرين
- وأخيرا نستنتج بأن المويلحى لم يكن من أولئک الذين يكرهون الحضارة الغربية وإنما كان يأخذ على المصريين الأخذ بها دون تبصر ولا نظر.

المصادر والمراجع

ابن الأثير. (١٩٣٩م). المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر. مطبعة مصطفى البابى.

أحمد، عبدالله عبدالمطلب. (١٩٨٥م). المويلحى الصغير. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بدر، طه عبدالمحسن. (١٩٦٣م). تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر. القاهرة: دار المعارف.

البشرى، عبدالعزيز. (١٩٣٥م). المختار. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

تيمور، محمود. (١٩٢٦م). الشيخ سيد العبيط وقصص أخرى. القاهرة: المطبعة السلفية.

ثابت، محمد رشيد. (١٩٧٥م). البنية القصصية ومدلولها الاجتماعى فى حديث عيسى بن هشام. تونس: الدار العربية للكتاب.

جبريل، محمد. (١٩٧٢م). مصر فى قصص كتابها المعاصرين. القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب.

حسن، محمد رشدى. (١٩٧٤م). أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حمزه، عبداللطيف. (١٩٩٦م). أدب المقالة الصحفية فى مصر. القاهرة: دار الفكر العربى.

خضر، عباس. (١٩٦٦م). القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

الراعى، على. (١٩٦٤م). دراسات فى الرواية المصرية، القاهرة: مطبعة مصر.

رافعى، عبدالرحمن. (١٩٦٦م). مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال. الطبعة الثالثة. القاهرة:

الدار القومية للطباعة والنشر.
رامیتش، یوسف. (١٩٨٠م). أسرة المویلحی وأثرها فی الأدب العربی الحدیث. القاهرة: دارالمعارف.
سعید، نفوسة زکریا. (١٩٦٤). تاریخ الدعوة إلی العامیة وآثارها فی مصر. الإسکندریة: دار نشر الثقافة.
شوکت، محمود حامد. (١٩٦٣م). الفن القصصی فی الأدب المصری الحدیث. القاهرة: دار الفکر العربی.
ضیف، شوقی. (٢٠٠٨م). الأدب العربی المعاصر فی مصر. القاهرة: دارالمعارف.
عثمان، عبدالرحمن. (١٩٦٥م). الأدب العربی الحدیث فی البلاد العربیة. ط١. القاهرة: دار الکتاب العربی.
العقاد، عباس محمود. (١٩٩٢م). رجال عرفتهم. القاهرة: دار الهلال.
عیاد، شکری محمد. (١٩٦٨م). القصة القصیرة فی مصر. القاهرة: الدار القومیة للطباعة والنشر.
مبارک. زکی. (١٩٣٤م). النثر الفنی فی القرن الرابع الهجری. القاهرة: مطبعة دار الکتب المصریة.
المویلحی، محمد. (١٩٢٧م). حدیث عیسی بن هشام. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
الهمذانی، بدیع الزمان. (١٤٢٦ق). مقامات. بیروت: دار الکتب العلمیة.
وادی، طه. (١٩٩٦م). الروایة السیاسیة. القاهرة: دار النشر للجامعات.

المجلات والدوریات

إبراهیم، أحمد أبوبکر. (١٩٨٢م). «حدیث عیسی بن هشام. مجلة الرسالة. العدد ٤٩٠. صص ١٠٨١-١٠٨٠.
إبراهیم، أحمد أبوبکر. (١٩٨٣م). «حرکة الإصلاح وحدیث عیسی بن هشام». مجلة الرسالة. العدد ٥٠٣. صص ١٥١-١٤٩.
الحاجری، طه. (١٩٦٣م). «نشأة المذاهب الأدبیة فی الشعر العربی الحدیث». مجلة المجلة المصریة. العدد ٨٥. صص ٣٧-٣١.
حواس، عبدالحمید. (١٩٨١م). «دراسة البنیة القصصیة ومدلولها الاجتماعی فی حدیث عیسی بن هشام». مجلة الأدب واللغات. المجلد الاول. العدد ٢. صص ٢٣٧-٢٣١.
الکرافس، محمد. (٢٠١١م). «مغامرات الشکل القصصی من التقلیدیة». مجلة الرافد. الشارقة. العدد٤. صص ١٧-١١.
مرتاض، عبد الملک. (١٩٩٨م). «فی نظریة الروایة: بحث فی تقنیات السرد». سلسة عالم المعرفة. العدد ٢٤٠. ص ١٧٣.